

خمس وعشرين سنة قد أنستهم الأيام ما كان في تلك المحاضرة من آراء

وكذلك أعد القلم والدواة والقرطاس ليحدث قراء (الثقافة) بأن مصر ارتكبت جرماً عظيماً حين سمحت بأن ينقسم التعليم إلى شمتين : شعبة دينية وشعبة مدنية ، وأن هذا عرض المجتمع المصري لشهود الصراع بين طائفتين مختلف عقلياتهم أشد الاختلاف

وكيف قال هذا الكلام ؟ قاله وهو يوم القراء أنه من الابتكرات في عالم الاجتماع !

ولم يكن الشيخ الحضري أول من قال ذلك الكلام الذي مرقه أحمد أمين ، فقد تنبه المغفور له على ياشا مبارك إلى هذه الفكرة منذ أكثر من سبعين سنة ، وعلى أساس هذه الفكرة أنشأ مدرسة دار العلوم ليخلق جيلاً يجمع بين الصبغة الدينية والمدنية ويكون أساساً للتطور المعقول

وهذه الفكرة عرض لها الكتاب بالنقد والشرح مرات كثيرة في مدى أعوام طوال ، وفصلها المنفلوطي في (النظرات) بعض التفصيل ، وإن كان ساقها في مساق آخر هو التناحر بين الأخياف من أبناء الثقافة المدنية

من حق أحمد أمين أن يلخص كلام من سبقوه ليطلع عليه شبان هذا الجيل

ولكن هل راعي الأمانة العلمية وهو أستاذ مستول ؟ هل رجع كل كلام إلى قائله كما يصنع أساندة الجامعات ؟ لم يصنع شيئاً من ذلك ، وإنما انتهب ما انتهب ، ثم واجه القراء وهو مزهوٌ مختال ، كأنه صار بالفعل من أهل الابتكار في الميادين الأدبية والاجتماعية !

قد يقال : وأين هذا الكلام من الموضوع الأسيل ؟ وأجيب بأنني أريد أن أبين أن أغلاط أحمد أمين لم تكن أغلاط الرجل المجتهد ، وإنما هي أغلاط منهوية مسروقة ليس فيها من جديد غير برقتها بحجر جديد في ورق جديد !

وليك يساق الحديث

ليس أحمد أمين ثوب المفكر المبتكر وقال : إن الأدب الجاهلي جنى على الأدب العربي حين فرض عليه ما عرف الجاهليون من ألفاظ وأخيلة وتماير وقواف وأوزان

جناية أحمد أمين

على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

- ٢٠ -

— — — — —

من كلام الحكماء : « نموذ بالله من الحديث الماد »

وإنما استماد الحكماء من الحديث الماد لأنه شاهد على انعدام القدرة على الابتكار والابتداع والخلق والإنشاء ، ولأنه يدل على استهانة التكلم بأقدار من يخاطب من الرجال ، ولأنه يشهد بأن صاحبه قد لا يعنى ما يقول

وصديقنا القديم الأستاذ أحمد أمين موكلٌ بالحديث الماد ينقله من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل ، وقد صحت فيه كلمة أحد للنقاد القدماء في سعيد بن حميد :

« لو قيل لكلام سعيد وشعره : ارجع إلى أهلك لما بقى معه شيء »

وكذلك تقول في كلام أحمد أمين : فلو دعونا مقالاته ومؤلفاته بالرجوع إلى أهلها لما بقى معه شيء !

وما ظنكم برجل يتوهم أن القراء في الأقطار العربية هم جميعاً أبناء الأمس ، وما فيهم قارئ واحد سمع من أخبار الأدب والمجتمع غير ما يتحدث به أحمد أمين ؟ وإليك هذا الشاهد :

كان المرحوم الشيخ محمد الحضري بك ألقى محاضرة منذ خمس وعشرين سنة عن تطور المجتمع المصري ، وقد نص في تلك المحاضرة على الخطأ الذي ارتكبه مصر حين سمحت بأن ينقسم التعليم إلى شمتين : شعبة دينية وشعبة مدنية ، وقال : إن هذا يعرض مصر لشهود الصراع بين طائفتين مختلف عقلياتهم أشد الاختلاف

وقد سمعت هذه المحاضرة وسمعتها الأستاذ أحمد أمين ، فهل نعرفون ما الذي وقع ؟

وقع أن الأستاذ أحمد أمين فهم أن الشيخ الحضري مات منذ أكثر من عشر سنين ، وأن الذين سمعوا تلك المحاضرة منذ

وهل في الدنيا جرأة أعظم من جرأة الرجل المسلم حين يقول في زمن شباب الإسلام بوجوب التحرر من بعض أساليب القرآن؟ وهل يجوز القول بأن من جاز عندهم الخروج على الأساليب القرآنية نصيب عليهم الثورة على التقاليد الجاهلية؟

أنظروا كيف يقول ابن المذبر في « الرسالة المذراء » :
« واعلم أنه لا يجوز في الرسائل ما أتى في آي القرآن من الإيصال والحذف ، ومخاطبة الخاص بالعام ، والعام بالخاص ، لأن الله سبحانه وتعالى إنما خاطب بالقرآن أقواماً فصحاء ففهموا عنه جل ثناؤه أمره ونهيته . والرسائل إنما يُخاطبُ بها قوم دخلاء على اللغة لا علم لهم بلسان العرب . وكذلك ينبغي للكاتب أن يتجنب اللفظ المشترك والمعنى الملتبس ، فإنه إن ذهب على مثل قوله تعالى (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها) وقوله تعالى (بل مكر الليل والنهار) احتج أن يبين أن معناه (إسأل أهل القرية وأهل العير) و (بل مكركم بالليل والنهار) ومثله في القرآن كثير » (١)

فما معنى هذا الكلام؟

معناه أن العرب فهموا أن القرآن وهو عندهم تنزيل من حكيم حميد راعي عقلية العصر الذي نزل فيه تخاطب الناس بما يفهمون ، وأنه حين يتغير الناس بتغير الزمان لا يجب أن يخاطبهم بالأسلوب الذي استجازه القرآن ، لأنه نزل على قوم يدركون الحذف والإيصال ومخاطبة الخاص بالعام ، والعام بالخاص

فهل يعقل أن يكون الأدب الجاهلي أقدس عندهم من القرآن؟ وهل يجوز اتهام العقلية العربية بالجمود والجمود لتصح أو هام أحمد أمين؟

أنا أتحدى أي باحث أن يثبت أن العرب لم يدركوا ما يوجبه اختلاف الزمان والمكان في تلوين الصور والأفكار والأساليب أتحدى أي باحث أن يقيم الدليل على أن العرب التزموا محاكاة التمايز القرآنية والنبوية

وكيف فات أحمد أمين أن العرب لم يلتزموا وحدة الوزن والقافية على نحو ما ألزم الجاهليون؟

ألم تصل إليه أخبار التجديد والتنوع في القوافي والأوزان عند أهل المشرق وأهل المغرب؟

ألم تصل إليه أخبار الموشحات والأزجال؟

(١) الرسالة المذراء ص ١٨ طبعة زكي مبارك

وهذه الفكرة خطأ في خطأ ، وهو نقلها عن بعض الكتاب الذي تكلموا في النقد الأدبي بلا زاد من المعارف الأدبية ، وبلا سند من فهم التطور الذي شهده العرب في ميدان الحقائق الأدبية وآفة الأدب في مصر وفي غير مصر أنه معرض في كل وقت لغارة الأديعاء ، فكل مخلوق يزعم أن من حقه أن يقرأ الشعر والنثر قراءة الخبير بأسرار الدقائق الشعرية والنثرية ، وأن يوازن بين الشعراء والخطباء والكتاب والمؤلفين بعد أن تتيح له المقادير أن يفرق بين المنظوم والنثر ، وبين الخطاب والكتاب ، وبين الألف والباء !

وهل كان من الصحيح أن الأدب الجاهلي جنى على الأدب العربي في المصور الإسلامية؟

إن العرب تحلوا من قيود الأدب الجاهلي منذ أول يوم توجهوا فيه إلى الاتصال بغيرهم من الممالك والشعوب ويقول المبتدئون في الأدب إن أبا نواس كان أول من ثار على التقاليد الجاهلية ، وهذا غير صحيح ، وإن صار من الحقائق المقررة عند بعض أساتذة كلية الآداب

والصحيح أن الثورة على التقاليد الجاهلية في الأشعار والرسائل سبقت عهد أبي نواس بزمن بعيد . ولهذا الثورة شواهد في العصر الأموي سنوفا حين نجد ما يوجب ذلك ، أو حين ينطق الأستاذ أحمد أمين الذي خرج بالصمت عن لا ونعم ، والذي نزل بالبرج العاجي ضيفاً على الأستاذ توفيق الحكيم

قلت لكم غير مرة إن أحمد أمين قليل الاطلاع على تاريخ الأدب العربي ، فلو كان من المطلبين لعرف أن العرب بعد الإسلام أعلنوا ثورتهم على التقاليد الجاهلية ، وصرحوا بأن الأدب يتأثر بالزمان والمكان ، وأن أخيلة سكان الحواضر يجب أن تختلف عن أخيلة سكان البوادي ، وأن من يعيش في مصر له أذواق تختلف أذواق من يعيش في الحجاز أو العراق أو الشام أو المغرب أو فارس أو الهند

لو كان أحمد أمين من المطلبين لعرف أن من العرب في القرن الثالث من صرح بأحكام يمجز عن التصريح بها من يعيشون في هذه الأيام

هل تصدقون بأن من كتب القرن الثالث من قال بأنه لا يجوز أن نحاكي القرآن في جميع التمايز؟

وإنما كان الأمر كذلك لأن اختلاف المكان يؤثر في الأذواق حتى صبح القول بأن الأدب الإنجليزي في إنجلترا يبعد بعض البعد أو كل البعد عن الأدب الإنجليزي في أمريكا . وكذلك يقال في الأدب الفرنسي حين يصدر عن أرض فرنسية أو بلجيكية أو سويسرية

فكيف يمكن أن يتفرد العرب بالخروج على هذا القانون الذي تفرضه طبيعة الوجود على سائر الناس

وهل يجوز في ذهن عاقل أن تكون جميعية ابن الرومي نسخة ثانية من جميعية الشماخ لوحدة القافية ؟

وهل يصح أن تكون ثانية حافظ إبراهيم في رثاء محمد عبده صورة من ثانية دعبل في التوجع لأهل البيت بحجة الاتفاق في الوزن والقافية ؟

إن أحمد أمين ينظر في ديوان جاهلي وديوان إسلامي فيرى قصائد تشابهت في القوافي والأوزان فيحكم بأن الشعر لم ينتقل من حال إلى حال ، وإن اختلفت الأماكن والأجيال

ولو نظر غيره هذه النظرة لقلنا إنه يحكم أحكاماً عامية ، ولدعونه إلى الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية

من واجب أحمد أمين أن يفهم أن أساتذة الجامعات لا يصح لهم الوقوف عند ظواهر الأشياء ، فأقل منزلة لرجل الجامعة أن يكون في إحساسه كالشاعر الذي قال :

أسمع في قلبي ديب المنى وألح الشبهة في خاطري
وأحد أمين أستاذ في كلية الآداب ، وهي كلية على جانب عظيم من الكبرياء ، وهي تأبي الاعتراف بأى معهد يقارعها في هذه البلاد ، ولا تنظر إلى سائر المعاهد الأدبية إلا بسين الاستخفاف والمنزلة التي صارت إليها كلية الآداب بفضل جهود أساتذتها الكبار من المصريين والأجانب توجب على الأستاذ أحمد أمين أن ينظر في كل كلمة يكتبها خمسين مرة قبل أن يرضها على الناس فإن كان حرصه على مكانة تلك الكلية يوم زعم أن الأدب العربي لم يتطور قط ، وأن الأدب الجاهلي ظل يسيطر عليه من عصر إلى عصر حتى خفق مواهب أحمد شوقي وحافظ إبراهيم ؟

وهنا يتسع المجال لمرض سرقة جديدة من سرقات أحمد أمين فهل يترف هذا الباحث الكبير من أين أخذ القول بأنه يجب أن نضع القنبلة مكان القوس ؟

ألم يسمع بما دخل في الشعر العربي من الأخيلة الفارسية والصربية والأندلسية ؟

ألم يحذره أحد بأن الذوق الأدبي عند مهيار الديلمي يخالف الذوق الأدبي عند الشريف الرضي ؟

ألم يعلم بأن عمارة اليميني له مذاهب في القول تخالف مذاهب ابن حمديس ؟

ألم يقرأ ما كتب أبو الحسن الجرجاني في اختلاف الأذواق باختلاف الوجوه والطباع ؟

ألم يتحدث كتب الفقه بأن الشافعي تغيرت حاسته التشريعية بالتردد بين الحجاز ومصر والعراق ؟

ألم يسمع بأن علماء البلاغة في مصر لهم مسالك تخالف مسالك أمثالهم في فارس ؟

ألم يصل إليه القول بأن كتاب الإحياء له ألوان مختلفات بسبب تنقل المؤلف من أرض إلى أرض ؟

ألم يشهد تطور الأسلوب عند ابن عربي في الفتوحات المكية بسبب اختلاف موطن التأليف ؟

ألم يعرف بأن شعراء اليتيمة تختلف أذواقهم باختلاف البلاد ؟

ألم يدرك أن أشعار البهازي لها مذاق غير مذاق أشعار ابن زيدون ؟ ألم يلمس الخشونة والنعومة في تردد ابن الجهم بين البادية وبغداد ؟

وهل بقي أحمد أمين على حال واحد حتى يبقى الناس جميعاً على حال واحد ؟

إن أحمد أمين القاضي الشرعي كانت له مسالك في الحكم على الأشياء تخالف مسالك أحمد أمين الأستاذ في كلية الآداب

فكيف يقال إن الشاعر الذي يعيش في الأندلس أو في فارس لا يزال خاضعاً لأذواق أسلافه القدماء في الحجاز أو العراق ؟

إن أذواق أهل العلم في البلد الواحد تختلف باختلاف المهنة الذي يتخرجون فيه ، مع وحدة الزمان ، ومع تقارب المشارب والميول . فالمتخرج في الأزهر غير المتخرج في دار العلوم وغير المتخرج في كلية الآداب . وقد كان مفهوماً عند أهل مصر أن المتخرج في الأزهر غير المتخرج في الجامع الأزهرى مع التقارب الشديد فيما يلقى هنا وهناك من المعارف السلفية والنقلية . وأهل فرنسا يفهمون أن المتخرج في جامعة باريس غير المتخرج في جامعة بيون

